تعاليم اليهودية والمسيحية عن الحرب

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: هل يجوز القتال من أجل الدين؟ ولنبدأ بمعالجة هذا السؤال أولاً.

إن التعاليم الدينية عن الحرب تتخذ صورًا شتى. وقد ذكرنا فيما سبق تعاليم العهد القديم، التي جاءت في التوراة إلى موسى تأمره بدخول أرض كنعان بالقوة لهزيمة سكانها وإسكان شعبه فيها، (التثنية ٢٠: ١٠ – ١٨)

وعلى الرغم من وجود هذا التعليم في شريعة موسى، وعلى الرغم من تطبيقه عمليًا على يد النبي يوشع والنبي داود وآخرين، فإن اليهود والمسيحيين لا يزالوا يشيدون بأنبيائهم ويعتبرون كتبهم كتبًا سماوية من عند الله تعالى.

وعندما انتهى العهد القديم، وجدنا يسوع يعلم في الإنجيل:

"وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضًا" (متى ٥: ٣٩).

ولطالما ذكر المسيحيون هذا البيان الصادر عن يسوع، واحتجوا به على أنه كان يعلم ويعظ تعليمًا مضادًا للحرب، ولكنا نجد في أناجيل العهد الجديد فقرات مفادها العكس تمامًا، تقول فقرة منه على سبيل المثال، في إنجيل متّى ١٠: ٣٤:

"لا تظنوا إني جئت لألقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا".

وفي فقرة أخرى يقول:

"فقال لهم: ولكن الآن من لـــه كيس فليأخذه ومِـــزوَد كـــذلك، ومن ليس له فليبيع ثوبه ويشتر سيفًا" (إنجيل لوقا ٢٢ :٣٦).

هاتان الفقرتان الأخيرتان من الفقرات الثلاث الســـابقة تناقضـــان الأولى، فإذا كان المسيح قد جاء للحرب، فلماذا يدعو إلى إدارة الخد الآخر؟ من الواضح أنه ينبغي إما التسليم بوجود تناقض في الإنجيل، أو أن علينا تأويل التناقض على وجه مناسب.

ولسنا معنيين في هذا المقام بقضية ما إذا كانت إدارة الخد الآخـــر أمرًا قابلاً للتطبيق على وجه الإطلاق، ولكن ما يعنينا هنا أن نشـــير ونؤكد أن الدول المسيحية كلها طوال التاريخ لم تتردد في الذهاب إلى الحرب ولم يديروا الخد الآخر. وعندما نال المسيحيون الملك والسُلطة لأول مرة، فإنهم دخلوا الحروب مهاجمين ومدافعين. وهم الآن قُـــوى مسيْطرة في العالم، ولا زالوا متورطين في الحروب مدافعين ومهاجمين. وفي هذا العصر الحالي نجد أنه إذا انتصر جانب منهم، مجّدتـــه بقيـــة الشعوب المسيحية، واعتبروا انتصاره انتصارًا للحضـــارة المســـيحية، وأصبحت الحضارة المسيحية في كل صورها تعني الهيْمنة والنجـــاح. وعندما تتحارب دولتان مسيحيتان، فإن كلاً منهما تدّعي أنها تحمـــى المثل المسيحية، ويتم تمجيد الدولة المنتصرة باعتبارها الدولة المســـيحية الحقيقية. ومن الواضح أنه منذ زمن المسيح وإلى عصرنا هذا، ظلـــت المسيحية تخوض غمار الحروب، وتشير كل الشواهد إلى أنها ســـوف تظل على نفس الحال.

وإذن فالفتوَى العملية للمسيحية هي أن الحرب تُعبر عن التوجيه الحقيقي لتعاليم العهد الجديد، وأن موضوع إدارة الخد الآخر هذا، لم يكن إلا تعليمًا انتهازيًا أملاه العجز التام للمسيحيين الأوائل، أو أن المقصود به هو أن يُطبّق على الحالات الفردية، لا على الدول ولا على الشعوب.

وثانيًا، حتى لو افترضنا أن المسيح قد أمر بالسلام لا الحرب، فلا يعني هذا أن من لا يتّبعون تعاليمه لم يكونوا قديسين أو شرفاء. فقد دأبت المسيحية دائمًا وأبدًا على احترام أعمدة الحرب، مثل موسى وداود ويوشع. وليس هذا فقط، بل إن الكنيسة نفسها قد كرّمت الأبطال القوميين الذين دخلوا الحروب، ونصّبتهم قدّيسين على يد البابوات.

تعليم القرآن المجيد عن الحرب والسلام

يختلف القرآن المجيد في تعاليمه عن تعاليم التوراة والإنجيل. إنه وسط بين الاثنين؛ فهو لا يأمر بالعدوان كما جاء في التوراة، ولا هو يفعل كما تفعل المسيحية هذه الأيام فيأمر بأمرين متناقضين: أي يطلب منا أن ندير الخد الآخر، وفي نفس الوقت يأمرنا أن نبيع الملابس لشراء السيوف. إنّ تعاليم الإسلام تطابق الفطرة الطبيعية للإنسان وتتناسب معها، وتدعو لنشر السلام بالطريقة الوحيدة الممكنة.

يحرّم الإسلام الاعتداء على الناس، ولكنه يحث على القتال إذا كان القعود عنه يعرّض السلام للخطر ويشجّع الحرب. وإذا كان القعود عن القتال يؤدّي إلى الاستئصال التام لحرية الاعتقاد وحرية البحث عن الحقيقة، فإن واجبنا أن نقاتل.

هذا هو التعليم الذي يمكن أن يُبنى عليه سلام دائم، وهذا هو التعليم الذي بَنى عليه الرسول ﷺ سياساته الخاصة وممارساته العملية. لقد عانى ﷺ باستمرار وبصبر في مكة، ولكنه لم يقاتل العدوان القاسي الذي كان هو ضحية بريئة له. ولما هاجر إلى المدينة، وخرج العدو لاستئصال شأفة الإسلام، كان قتال العدو حينئذ هو العمل الذي لا بد منه، من أجل الدفاع عن الحق وحرية الفكر والعقيدة.

وسنعرض في ما يلي للآيات القرآنية التي تشتمل على موضوع الحرب.

أولاً: في سورة الحج: ٤٠-٤٢ نجد ما يلي:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾.

تقول الآيات إن ضحايا العدوان قد سمح لهم بالقتال، وأن الله تعالى قدير على أن يعين هؤلاء الضحايا، الذين طُردوا من بيوتهم بسبب

عقائدهم. وهذا التصريح لهم بالقتال هو فعل حكيم، فلو لم يدفع الله تعالى الظلم والقسوة، بواسطة المخلصين من عباده الصالحين، فلن توجد في العالم حرية للإيمان ولا للعبادة، ولذا فلا بد أن يعين الله ﷻ أولئك الذين يعملون على إقرار حرية الفكر وحرية العبادة. ويعني ذلك بالتالي أن القتال مسموح به عندما تطول معاناة الناس من عدوان ظالم، حين لا يكون لدى المعتدي سبب للعدوان، ويبتغي بعدوانه التدخّل في اختيار الناس لدينهم. وعليهم إذا تقلّدوا السُلطة أن يقيموا دعائم احترام حرية الدين والعقيدة، وأن يحموا كل الأديان وجميع أماكن العبادة. ولا يجوز لهم استخدام سُلطتهم أو قوّتهم من أجل مجدهم الخاص، ولكن من أجل مصالح الفقراء، وتقدّم البلد كلها، وتعميم السلام على الجميع. وهذه التعاليم بقدر ما هي واضحة ودقيقة فهي رائعة، ولا غبار عليها. وإنها لتعلن للعالم حقيقة أن المسلمين الأولين ذهبوا إلى الحرب حيث لم يكن أمامهم من سبيل سوى ذلك، وحيث حرّم الإسلام عليهم الحرب العدوانية. لقد وعدهم الله تعالى بالنصر السياسي والسُلطة، ولكنه ﷻ حذّرهم من استخدام هذه السُلطة لتعظيم أنفسهم واستعلائهم على الناس، بل لتحسين حالة المساكين وإشاعة السلام والتقدم.

ثانيًا: جاء في سورة البقرة الآيات التالية من ١٩١ إلى ١٩٤:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۞ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۞ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

والمعنى: إن القتال يكون هدفه التماس رضوان الله تعالى، وليس بغرض إرضاء رغبة الانتقام أو تعظيم شأن النفس، وينبغي ألا يقوم القتال على أساس العدوان، لأن الله لا يرضى بالاعتداء على الناس أو العدوان على البريء. والقتال يكون فقط بين المتقاتلين، فالتعدّي على الأفراد ممنوع بأمر الإسلام. والعُدوان على الدين يجب أن يُقابَل بمقاومة فعّالة، لأن عدوانًا من هذا القبيل لهو أخطر من سفك الدماء. وعلى المسلمين ألا يقاتلوا أحدًا قريبًا من المسجد الحرام إلا إذا بدأ العدوّ بالهجوم، فالقتال قريبًا من المسجد الحرام يتعارض مع الحق العام في الحج، ولكن إذا بدأ العدوّ بالهجوم فللمسلمين حقّ ردّه، فهذا هو الجزاء العادل للعدوان. أما إذا توقف العدوّ فعلى المسلمين التوقف كذلك، بل ونسيان الماضي وغفرانه. ويظل القتال مشروعًا حتى ينتهي الاضطهاد الديني وتستقر أعمدة الحرية الدينية، لأن الحساب على أمر الدين متروك لله ﷻ. إن استعمال القوّة أو الإكراه في أمور الدين خطأ فادح، وإذا انتهى الكافرون عن ذلك، وأطلقوا الحرية الدينية، فعلى المسلمين الكفّ عن قتال الكفار. ولا يُرفع السلاح إلا على الذين يرفعونه ويقصدون العدوان، ولكن عندما يتوقف العدوان فإن القتال يجب أن يتوقف أيضًا بشكل تام.

ويمكننا أن نقول إن الآيات ترشد إلى القواعد التالية:

أ- تُشنّ الحرب ابتغاء وجه الله تعالى، وليس التماسًا لأية دوافع نفسية، ولا للاستكبار في الأرض، ولا للاستكثار من أية فوائد أخرى.

ب- يجوز لنا أن نحارب الذين يبدأوننا بالهجوم ولا سواهم.

ج- ويجوز لنا أن نقاتل الذين يرفعون علينا السلاح، من المقاتلين وحدهم. ولا يجوز لنا قتال من لا يساهم في المعركة.

د- وحتى بعد أن يبدأ العدوّ الهجوم، فإن علينا الحفاظ على إبقاء مجال الحرب في أضيق الحدود، فمن الخطأ تَوسيع رقعة القتال، سواء من حيث المساحة على الأرض أو بالنسبة لنوعية الأسلحة المستخدمة.

هـ- ينبغي ألا نقاتل سوى الجيش النظامي الذي أخرجه العدو للقتال، ولا يجوز مقاتلة الآخرين الذين لا يقاتلون في صفه.

و- أثناء الحرب يجب المحافظة على حُرمة كل الطقوس والشعائر الدينية، وأماكن وأزمنة تأديتها. وإذا حافظ العدوّ على الأماكن التي تقام فيها المناسك الدينية، فإن على المسلمين أيضًا أن يكفّوا عن القتال في هذه الأماكن.

ز- إذا استخدم العدوّ أماكن العبادة كقواعد للانطلاق في هجومه، فإنه يمكن للمسلمين رد هذا الهجوم، ولا لوم عليهم حين يفعلون. ولا يجوز القتال حتى في جوار الأماكن المقدسة، فمن المحظور بشكل مطلق أن تهاجم الأماكن المقدسة أو تهدم أو تخرّب أو يوجّه إليها أي فعل يضرّ بها. وإذا اتخذ العدو مكانًا مقدسًا كقاعدة لعملياته فإن ذلك يمكن أن يستجلب ردًّا مضادًا، وفي هذه الحالة فإن مسؤولية أيّ تلف يصيب المكان ستقع على العدوّ لا على المسلمين.

ح- إذا أدرك العدو خطأه في اتخاذ مكان مقدّس كقاعدة لعدوانه، وتنبّه للخطر الذي ينتج من ذلك فابتعد عن ذلك المكان المقدس، فعلى المسلمين أن يأخذوا ذلك التغيير في الاعتبار. ولا يجوز للمسلمين أن يهاجموا ذلك المكان لمجرّد أنّ العدوّ قد بدأ هجومه منه. ولكن حرصًا على قداسة المكان، ينبغي للمسلمين تغيير جبهة القتال بعيدًا عن ذلك المكان المقدس، بمجرد أن يبتعد عنه العدوّ.

ط- يستمر القتال حتى ينتهي التدخل بالجبر والإكراه في الدين وفي الحرية الدينية، وعندما تتحقق حرية الدين، وعندما لا يُسمح بالإكراه في الدين، ويعلن العدوّ ذلك ويبدأ في الالتزام به والسلوك بمقتضاه؛ عند ذلك تنتهي الحرب معه، رغم أن العدوّ هو الذي بدأها.

ثالثًا: في سورة الأنفال، وفي الآيات ٣٩ إلى ٤١، نجد لدينا ما يلي: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ۞ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِن انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

ومعنى ذلك أن الحرب تكون مفروضة على المسلمين، ولكن إذا توقف العدوّ وانتهى عنها، فعلى المسلمين فعل الشيء نفسه، وعليهم غفران الماضي. ولكن إذا لم ينته العدوّ، وظل يكرر الهجوم فعليه إذن أن يتذكر مصير أعداء الأنبياء السابقين. ويحق للمسلمين القتال حتى ينتهي الاضطهاد الديني، أو طالما أن الدين ليس متروكًا إلى الله تعالى، أو طالما أن العدوّ لم يتوقف عن التدخل والإكراه في الدين. فإذا انتهى

المعتدي فعلى المسلمين الانتهاء كذلك، وليس لهم حق الاستمرار في القتال بسبب بطلان عقائد العدوّ، إن الله يعلم جيدًا قيمة العقائد ووزن الأعمال وسوف يجزي عليها بفضله. وليس للمسلمين الحق في التحرّش بدين قوم آخر مهما بدت عقائد هذا الدين زائفة. وإذا استمر العدوّ في الحرب بعد عرض السلام عليه، فعلى المسلمين أن يكونوا على يقين من النصر مهما كان عددهم قليلاً، لأن الله سوف يعينهم، ومن أحسن من الله عونًا ونصرًا؟

لقد نزلت هذه الآيات في أيام معركة بدر، التي كانت أول معركة منظمة بين المسلمين وبين العدوّ، وفيها كان المسلمون ضحايا هجوم لا مبرر له. لقد اختار العدوّ تدمير سلام المدينة والمنطقة المحيطة بها، ورغم ذلك كان النصر من نصيب المسلمين، ولقي القادة الكبار من رجال العدوّ مصرعهم. وبينما بدا أن الانتقام من عدوان كهذا هو أمر طبيعي وعادل وضروري، إذا بالمسلمين يتلقون أمر الله تعالى بأن يوقفوا القتال حالما يوقفه العدوّ، وكل ما على العدوّ أن يلتزم به هو منح حرية الاعتقاد والعبادة.

رابعًا: في سورة الأنفال أيضًا، وفي الآيات ٦٢، ٦٣ نقرأ قوله تعالى:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

والمعنى أنه لو مال الكافرون إلى إنهاء القتال قبل موقعة ما أو بعدها وعرضوا السلام، فالواجب على المسلمين أن يقبلوا عرض السلام، حتى مع وجود خطر احتمال المخادعة. فعليهم أن يضعوا ثقتهم في الله ربهم، لأن الخيانة لن تجدي الكافرين نفعًا ضد المسلمين الذين يتوكلون على الله. إن انتصاراتهم ليست من عند أنفسهم بل من عند الله تعالى الذي يقف إلى جانب رسوله وأصحابه، وسوف يساندهم ضد أي خداع أو خيانة للعدوّ. ولذلك لا بد من قبول عرض السلام، ولا يجوز رفضه بحجة احتمال أن يكون مجرد حيلة يلتمس بها العدوّ كسب الوقت، أو كسب فرصة لتنظيم صفوفه واستئناف الهجوم.

والتركيز على السلام في هذه الآيات ليس بلا معنى، إنه يستبق السلام الذي وقّعه الرسول ﷺ في الحديبية، وقد أخبر الله تعالى رسوله هنا أنه سيأتي الوقت الذي يطالب العدوّ فيه بالسلام، فلا يجوز رفض السلام على خلفية أن العدوّ كان هو المعتدي، وأنه قد أصرّ على عدوانه، أو أنه غير جدير بالثقة. إن الصراط المستقيم الذي يقرّه الإسلام يُلزم المسلم أن يقبل عرض السلام، وكل من التقوَى والحكمة السياسية يحبّذان هذا القبول.

خامسًا: في سورة النساء والآية ٩٥ نقرأ قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

أي عندما يذهب المسلمون للحرب فعليهم واجب التحقق؛ وطريقه هو أن يوَضّحوا للعدوّ عبثيّة الحرب وسوء مآلها، وأنه مع ذلك لا يزال يصر عليها. وحتى في هذه الظروف فإن عليهم ألا يرفضوا عرض السلام لو جاءهم من طرف فرد أو مجموعة، وليس لهم أن يعتذروا بأن العرض غير صادق. ولو رفض المسلمون عرض السلام فلن يكون قتالهم حينذاك في سبيل الله، بل لأجل أنفسهم ولأجل المكاسب الدنيوية. وعليهم أن يعلموا أن المغانم الدنيوية تأتي من عند الله تعالى، تمامًا كما تأتي من لدنه الهداية الربانية.

إن القتل يجب ألا يكون هدفًا، فإن من يُراد قتله اليوم قد يهتدي غدًا. وهل كان للمسلمين أنفسهم أن يصبحوا مسلمين لو لم يكن الله تعالى قد أبقاهم أحياء؟ لذلك فعلى المسلمين أن يمتنعوا عن القتل، لأن النفس التي يبقون عليها قد تتحوّل إلى نفس مهتدية، والله تعالى وحده هو الذي يعلم تمامًا ماذا يفعل الناس وما هي غاياتهم وما هي نيّاتهم ودوافعهم إلى ما يفعلون.

إن الآيات تعلمنا أنه حتى بعد بدء الحرب فإن واجب المسلمين أن يتأكدوا في أنفسهم تمامًا أن العدوّ يجنح للعدوان، فغالبًا ما يحدث أن تنعدم نيّة العدوان، ولكن شروع العدوّ في الاستعدادات للحرب تبعث الخوف والانزعاج.

وعلى المسلمين ألا يخرجوا للحرب ما لم يتحقّقوا أن العدوّ قد خطط للعدوان والهجوم، وإذا تبين أن الاستعدادات كانت للدفاع عن النفس، أو قال العدوّ ذلك، فعلى المسلمين التوَقف عن الحرب وقبول

زعم العدوّ. وليس للمسلمين أن يحتجّوا بأنه لا سبب للاستعدادات سوى العدوان، فربما نوَى العدوان ثم عدل عن نيته. ألا تتغير النيّات وتتحوّل المقاصد باستمرار؟ ألم يحدث مرارًا أن أعداء الإسلام قد صاروا من أتباعه؟

سادسًا: يقول القرآن المجيد في عدم انتهاك المعاهدات:

﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٤)

المشركون الذين دخلوا في اتفاق سلام مع المسلمين، وحافظوا على عهدهم، ولم يساعدوا عدوًّا ضدهم، فمن حقهم أن ينالوا نفس المعاملة من المسلمين، فإن من مستلزمات التقوَى على المسلمين أن يفوا من جانبهم بما عليهم في الميثاق نصًّا وروحًا.

سابعًا: يأمر القرآن المجيد بما يلي فيما يختص بالعدوّ الذي يرغب في فهم رسالة الإسلام رغم أنه في حرب مع المسلمين:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٦)

أي أن على المسلمين واجب منح اللجوء إليهم لمدة مناسبة، تكفي لغرض الشرح والإيضاح، إذا ما طلب اللجوء إلى المسلمين أحدُ أفراد العدوّ المحارب، يبتغي أن يسمع رسالة الإسلام للدراسة والتمعّن.

ثامنًا: ويقول القرآن المجيد عن أسرى الحرب:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٨)

أي أنه لا يجوز أسر أحد، إلا من المقاتلين الذين يشتركون فعلاً في ميدان القتال، فلم يُشرّع الله تعالى لأحد من الأنبياء أن يتّخذ أسرى إلا من الأعداء المقاتلين الذين قاموا بالعدوان وسفكوا الكثير من الدماء. وقد حرّم الإسلام خطف الأفراد من القبائل المعادية وهي العادة التي كانت منتشرة قبل الإسلام، وظل غير المسلمين يمارسونها بعده، فليس من الجائز شرعًا عند الله تعالى أن يؤخذ أسير دون حرب وممارسة قتال فعلي.

تاسعًا: وضع القرآن المجيد قواعد إطلاق سراح الأسرى كما يلي:

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾. (محمد: ٥)

إن الوضع الأفضل في الإسلام هو إطلاق سراح الأسير دون فدية، ولما كان هذا غير ممكن في كل حالة، فلذلك نص الله تعالى على السماح بقبول الفدية.

عاشرًا: هناك نص يختص بأسرى الحرب الذين لا يستطيعون أن يدفعوا الفدية، وليس لهم وليّ يستطيع أو يوافق على أن يدفع الفدية. وغالبًا ما يدفع أقارب الأسير فديته لإطلاق سراحه، ولكن يحدث أحيانًا أن يُفضّل بعضهم ترك القريب أسيرًا، ربما ليقوم باختلاس أمواله في غيابه، وقد فتح القرآن المجيد السبيل أمام هؤلاء لنوال حريتهم. يقول تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (النور: ٣٤)

أي أن أولئك الذين لا يستحقّون أن يُطلَقوا دون فدية، ولكن ليس لهم أحد يدفع نيابة عنهم، فبإمكانهم أن ينالوا حريتهم إذا وقّعوا على كتاب يتعهّدون فيه بالدفع إذا سُمح لهم بالعمل والكسب، وذلك إذا كانت لديهم الحرفة الملائمة والقدرة على العمل والكسب. فإذا تبين أهليّتهم وإمكاناتهم في العمل والكسب، يمكن للمسلمين أن يساعدوهم على ذلك بإمدادهم بما يستطيعون من عناصر العمل والربح. والأفراد المسلمون القادرون ماليًّا على المساعدة فعليهم أن يدفعوا عنهم، أو يتم إنشاء اكتتاب عام يشترك فيه المتبرعون لمساعدة هؤلاء البائسين ليقفوا على أقدامهم.

لقد عرضنا فيما سبق الآيات القرآنية التي تحتوي على تعاليم الحرب والسلام في الإسلام، وهي تخبرنا عن الظروف والشروط التي بها ندخل الحرب الدفاعية، والحدود التي يجب على المسلمين مراعاتها عندما يضطرون إلى خوض الحرب.

السنة النبوية حول الحرب

إن تعاليم الإسلام لا يحتويها القرآن المجيد وحده، بل تتجلى أيضًا في سنة الرسول ﷺ وقدوته، وفي سيرته وحياته. فما فعله وما علَّمه وما أمر به في وقائع موثّقة معينة، يُعتبر أيضًا جزءًا أساسيًا من تعاليم

الإسلام، ونذكر فيما يلي ما تفيده بعض أقوال الرسول ﷺ في موضوع الحرب والسلام.

١- يحرم على المسلمين جميعا أن يمثلوا بجثث القتلى (صحيح مسلم).

٢- يحرم على المسلمين أن يلجئوا إلى الغدر والخيانة (مسلم).

"اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا".

٣- لا يجوز قتل النساء ولا الأطفال، وقد استنكر رسول الله قتل النساء والصبيان (مسلم).

٤- لا يجوز التدخّل في عمل الرهبان والقسس والعاملين على إقامة الشعائر والقادة الدينيين (الطحاوي).

٥- لا يجوز قتل الشيوخ والعجزة والأطفال والنساء، ويجب أن يكون نصب أعيننا دائمًا أن نتيح الفرصة لإحلال السلام (أبو داود).

٦- عندما يدخل المسلمون أرض العدوّ يجب ألا يُرَوّعوا سكان البلد، ولا يجوز أن يسمحوا بأية إساءة في معاملة الناس عامة (مسلم).

٧- لا يجوز للجيش المسلم أن يضرب معسكره في مكان يتسبب في إزعاج الجمهور العام. وعندما يتحرك على الطريق فلا يجوز له سد الطرق أو أن يسبب إزعاجًا لعابري هذه السبل.

٨- لا يجوز تشويه الوجوه (البخاري ومسلم).

٩- عند إيقاع القصاص بالعدوّ فعلى المسلمين تكبيده أقل خسائر ممكنة (أبو داود).

١٠- يجب الحفاظ على بقاء الأقارب الأسرى معًا، وعدم التفريق بينهم عندما يوضع أسرى الحرب تحت الحراسة (أبو داود).

١١- يجب أن يحيا الأسير في ظروف مريحة، ويجب أن يهتم المسلمون بأَسْراهم فيرعوا راحة الأسرى أكثر مما يرعون راحتهم هم (الترمذي).

١٢- يجب استقبال الوفود والرسل من البلاد الأخرى بحفاوَة بالغة، ويجب تجاهل ما يصدر عنهم من فظاظة وأخطاء (أبو داود كتاب الجهاد).

١٣- أي سوء معاملة تحدث من مسلم نحو أسير، فكفارتها إطلاق سراح هذا الأسير، دون أن يدفع فدية عن نفسه. "من لطم مملوكًا فكفّارته عتقه".

١٤- إذا وُضع أسير حرب تحت رعاية أحد المسلمين، فعليه أن يُطعمه من نفس طعامه ويكسوه من نفس ثيابه (البخاري).

ولقد بلغ من إصرار الرسول ﷺ على هذه القواعد السلوكية للجيش المقاتل أنه أعلن لمن لم يُراعِ هذه الوصايا أنه لا يقاتل في سبيل الله، بل من أجل نفسه الأمّارة (أبو داود).

وقد أصدر أبو بكر رضي الله عنه، الخليفة الراشد الأول للإسلام، بعض التعليمات في موضوع الحرب والسلام، وأصبحت جزءًا من التعاليم التي يلتزم بها المسلم، ونذكر منها:

١٥- المنشآت العامة والأشجار المثمرة وحقول المزروعات لا يجوز إتلافها (الموطأ).

ومن أقوال الرسول ﷺ وتعليمات الخليفة الأول للإسلام رضي الله عنه يتضح أن الإسلام قد شرّع وشيّد أُسسًا لها آثارها في منع أو إيقاف

الحرب، أو تقليل ويْلاتها وبشاعتها. وكما سبق أن ذكرنا فإنّ الأسس التي أمر بها الإسلام ليست مجرد مُثُل عليا للتقوَى وسننها فقط، بل إن لهذه الأسس تجلياتها العملية في أسوَة الرسول ﷺ وخلفاء الإسلام الأوّلين. وكما يعلم العالم كله، فإن الرسول ﷺ لم يكتف بتلقين هذه الأسس، بل سلك بموجبها، وعمل بمقتضاها، وأصرّ على رعايتها حق رعايتها.

وإذا نظرنا إلى عصرنا الحاضر، فلن نجد تعليمًا آخر قدّم حلاً لمشكلة الحرب والسلام. فتعاليم موسى عليه السلام بعيدة عن مفاهيمنا للعدالة والإنصاف، ولا يمكن تطبيقها في أيامنا هذه. وأما تعليم المسيح عليه السلام فليس عمليًا على الإطلاق، ولم يكن عمليًا في يوم من الأيام، ولم يحاول المسيحيون في تاريخهم أن يضعوه يومًا قط موضع التطبيق. إن تعليم الإسلام هو التعليم العملي، وهو التعليم الوحيد الذي تم التبشير به كما تم تطبيقه أيضًا بيد أنصاره المخلصين، بالممارسة العملية التي يمكنها فعلاً حفظ السلام في هذا العالم. وفي هذا العصر يقوم غاندي بتقديم تعليم جليّ يقول: "إننا حتى لو فُرض علينا القتال والحرب، فليس علينا الذهاب إليه، ويجب ألا نقاتل". ولكن هذا التعليم لم يوضع موضع الاختبار في أيّ وقت خلال التاريخ، إنه لم يدخل إلى بوتقة التجربة لتثبت جدارته، فمن المحال أن نحدد قيمة هذا النهج إذن بلغة الحرب والسلام.

لقد عاش السيد غاندي طويلاً ليرى اتحاد الولايات الهندية وهي تنال استقلالها السياسي، ولم يحدث أن قامت حكومة الاتحاد بتسريح

الجيش، ولا أية قوات هندية مسلحة، بل كل ما فعلته هو وضع الخطط لصبغها بصبغة هندية، بل إن لها خططًا في إعادة تعيين الضباط الهنود الذين كانت السلطات البريطانية قد فصلتهم خلال هجوم اليابان على بورما والهند في المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الحديثة، والذين كانوا قد قاموا بتشكيل الجيش الهندي الوطني. ولقد رفع السيد غاندي صوته داعيًا في مناسبات عدة إلى التقليل من شأن جرائم العنف، وحث على إطلاق سراح الذين اقترفوا جرائم العنف، وهذا يدل على أن التعليم الذي يدعو إليه لا يمكن أن يطبق، والسيد غاندي يعرف ذلك جيدًا، كما يعرفه أتباعه كذلك. ولا يوجد مثال عملي واحد يمكن عرضه على العالم ليرى كيف يمكن تطبيق سياسة اللاعنف عندما ينشأ نزاع مسلح بين أمة وأمة أو بين دولة ودولة، أو كيف أن اللاعنف يمكنه إيقاف أو منع الحرب.

إن الدعوة إلى طريقة لإيقاف الحرب، مع عدم القدرة بتاتًا على تقديم مثال عملي على نجاح هذه الطريقة يدل على أن هذه الطريقة غير عملية. ويبدو لنا واضحًا إذن أن التجربة الإنسانية والحكمة الإنسانية تشيران إلى طريقة وحيدة فقط لمنع وإيقاف الحرب، هذه الطريقة هي التي جاءت بها تعاليم الإسلام ووُضعت في حيز التطبيق العملي على يد نبيّ الإسلام ﷺ.

هجوم واعتداءات متفرّقة للكافرين

عاد الأحزاب من معركة الخندق منكسرين محبطين، ولكن لم يكونوا قد فقدوا قدرتهم بعد على مضايقة المسلمين والتحرّش بهم، فمع أنهم كانوا منكسرين إلا أنهم كانوا يدركون أنهم لا زالوا أغلبية مُسَيطرة. وقد كانوا يستطيعون بسهولة اضطهاد الأفراد المسلمين، فكانوا يضربونهم ويقتلونهم. ولقد أرادوا التنفيس عن إحساسهم بالعجز أمام المسلمين بهذه الإساءات والاضطهادات التي صبّوها على الأفراد هنا وهناك. وبعد مرور وقت قصير على معركة الخندق، راحوا يعتدون على المسلمين حول المدينة، فأغار رجال من فزارة يركبون الإبل على مسلم قرب المدينة، وساقوا الإبل التي وجدوها ترعَى في المكان، وصحبوا معهم امرأة أسيرة وانطلقوا بالغنيمة. واحتالت المرأة لنفسها وتمكنت من الهروب، ولكن رجال فزارة نجحوا في الفرار بعدد من الإبل. وبعد ذلك بشهر قام رجال من قبيلة غطفان بالهجوم من جهة الشمال في محاولة لسلب قطعان إبل المسلمين . وأرسل الرسول ﷺ محمد بن مسلمة مع عشرة راكبين من أصحابه للاستطلاع ولحماية قطعان الماشية، ولكن العدوّ كمن لهم على الطريق وهاجمهم هجومًا قاتلاً وتركهم جميعًا صرعى إلا محمد بن مسلمة الذي سقط مغمى عليه، ثم أفاق واستجمع نفسه وقواه وعاد إلى رسول الله ليخبره بما حدث.

وبعد هذه الحادثة بأيام قلائل، هوجم مبعوث من رسول الله إلى عاصمة الروم وسرقوه، وكان الفاعلون رجال من قبيلة جذام. وبعد

ذلك بشهر هاجم بنو فزارة قافلة للمسلمين وفرّوا بغنائم جمة، ومن المحتمل ألا يكون الدافع إلى هذا الهجوم هو العداء الديني، فبنو فزارة كانوا قبيلة من قطاع الطرق المتمرّسين بأعمال القتل والسلب.

أما يهود خيبر، وهم المحرّض الأساسي على معركة الخندق، فقد عقدوا العزم على الانتقام للهزيمة الساحقة التي لحقت بهم في هذه الموقعة، فجاسوا خلال مضارب القبائل العربية يثيرونهم على الإسلام، وراحوا إلى قواد الجيوش الرومانية يحرّضونهم على محاربة المسلمين. وهكذا بعد أن فشل المشركون العرب وقادتهم في إحراز نجاح حاسم بالهجوم المباشر على المسلمين، راحوا يتآمرون مع اليهود ليجعلوا حياة المسلمين جحيمًا لا يطاق.

كان الرسول ﷺ حتى هذه اللحظة يجهز ويدبر أمره من أجل الإعداد لمعركة حاسمة، فقد يؤدي ذلك بالعرب إلى طلب السلام، وينتهي بذلك الصراع في الجزيرة العربية.

خروج رسول الله ﷺ إلى مكة في ألف وخمسمائة من أصحابه

رأى الرسول ﷺ خلال تلك الأيام رؤيا ذكرها القرآن المجيد كما يلي:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ٢٨)

ويعني هذا أن الله ﷻ قضى أن يدخل المسلمون المسجد الحرام بسلام، فيكون البعض منهم حليقًا والبعض مقصّرًا شعره (العلامة الخارجية للحجيج والمعتمرين) ولا ينتابهم الخوف. غير أن المسلمين لم يعلموا على وجه التحديد كيف يتم هذا. وبالإضافة إلى ذلك، فقبل أن يؤدّي المسلمون شعائر الحج في سلام، قضى سبحانه أن يجعل لهم نصرًا قريبًا.

كانت الآية الكريمة تنبئ بالنصر المبين للمسلمين، وهو مسيرهم الآمن إلى مكة، وفتح البلد الحرام بدون استخدام السلاح. ولكن الرسول ﷺ فهم الرؤيا على أنها أمر من الله تعالى أن يقوم من فوره مع المسلمين ليطوف بالكعبة. وقد صار هذا الخطأ في تفسير الرؤيا هو الفرصة التي بها سيمنح الله المسلمين النصر القريب الموعود في الرؤيا.

وهكذا خطط الرسول ﷺ للمسير إلى الكعبة، فأعلن الرؤيا وتفسيره لها للمسلمين، وطلب منهم الاستعداد؛ وأخبرهم أنهم سيذهبون من أجل الطواف حول الكعبة فقط، وليس من أجل أية اشتباكات مع العدو. وأخيرًا خرجوا في شهر فبراير /شباط* عام ٦٢٨ ميلادية، فكانوا ألفًا وخمسمائة۞ حاج يقودهم الرسول ﷺ،

---

* *أي في ذي القعدة من العام السادس للهجرة. (المترجم)*

۞ في هذه العُمرة التي تم التخطيط لها بعد عام من معركة الخندق، لم يصحب رسولَ الله ﷺ سوى ١٥٠٠ فقط من أصحابه، وعلى ذلك فلا بد أن عدد المسلمين المقاتلين في غزوة الخندق كان أقل من هذا العدد ولا يمكن أن يكون أكثر منه. وقد أخطأ المؤرخون الذين ذكروا أن عدد المقاتلين المسلمين في الخندق كان ٣٠٠٠ أو نحوهم، فالمعقول إذن أن يكون الرقم ١٢٠٠مقاتل.

واتخذوا سبيلهم في رحلة إلى مكة، يتقدمهم على مسافة منهم حرس راكب للاستطلاع، يتكوّن من عشرين رجلاً لينذرهم إذا تربّص بهم العدوّ ليباغتهم بالهجوم.

ولم يلبث أهل مكة أن علموا بأخبار هذه القافلة. كان الطواف بالكعبة حقًّا عامًّا للعرب حسبما أرسته التقاليد، ولن يكون من اللائق على الإطلاق أن ينكر العرب هذا الحق على المسلمين، خاصة وقد أعلنوا بشكل واضح أن غايتهم من مسيرتهم هذه أن يطوفوا بالكعبة ليس إلا، ومنَع الرسول ﷺ كل مظهر من مظاهر استعراض القوة، فلا تنازع ولا جدال ولا أية مطالبات. وعلى الرغم من ذلك فإن أهل مكة بدأوا يستعدون كما لو كان الأمر نزاعًا مسلحًا، ونصبوا الدفاعات على كل جوانب مكة، واستصرخوا القبائل المحيطة للعون، وبدوا مصممين على القتال.

وعندما بلغ الرسول ﷺ مكانًا قريبًا من مكة، علم أن قريشًا قد أعدت للقتال، وارتدوا جلود النمور، وصحبوا معهم النساء والأطفال، وأقسموا بالله في عزم أكيد ألا يدعوا المسلمين يمرّون إلى مكة. وكان ارتداء جلود النمور رمزًا للعزم المستميت على القتال. ولم تلبث أن التقت فرقة من الفرق الاستطلاعية لأهل مكة مع المسلمين، وعند ذلك توقف المسلمون، فلم يكن لهم أن يتقدموا خطوة بعد هذا إلا إذا امتشقوا سيوفهم. غير أن الرسول ﷺ كان قد عقد العزم ألا يفعل شيئًا من هذا القبيل، واستخدم دليلاً ماهرًا ليدل قافلة المسلمين على طريق بديل خلال الصحراء. وبقيادة هذا الدليل، بلغ الرسول ﷺ

وصحبه ماء الحديبية، وهي بقعة شديدة القرب من مكة، وعندها بركت ناقة الرسول السريعة، ورفضت التحرك. وظن أحد الصحابة أن الناقة قد تعبت من طول المسير، فقال للرسول ﷺ: "لقد خلأت القصواء يارسول الله". فقال ﷺ: "ماخلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها". (السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٣)

كان جيش مكة في هذا الوقت قد خرج من مكة، وكان قد ابتعد على مسافة منها على الطريق الرئيسي المؤدّي للمدينة، كي يتصدّى للمسلمين. ولو كان الرسول ﷺ يريد أن يحتل مكة، لترك أصحابه الألف والخمسمائة يدخلونها ويستولون عليها دون مقاومة، ولكنه كان يريد أن يطوف بالبيت فقط، إذا رضيت مكة بذلك. فهو لن يخوض حربًا مع مكة إلا إذا بدأها أهل مكة، وهكذا ترك الطريق الرئيسي وعسكر عند الحديبية.

وسريعًا ما وصلت الأخبار إلى قادة مكة، الذين أمروا رجالهم بالانسحاب والمرابطة قريبًا من البلدة، وأرسلوا سيدًا من سادتهم، وهو بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي، للتفاوض مع الرسول ﷺ. وأوضح رسول الله لبُديْل أنه والمسلمين لا يريدون إلا الطواف بالبيت، ولكن إذا أرادت مكة القتال، فإن المسلمين على استعداد لذلك. وبعده أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي – الذي كان زوجًا لابنة لأبي سفيان – بالشيء نفسه. كان عروة رجلاً فظًّا، سلك على نحوٍ غاية في الجلافة، وقال إنه

لا يرى في المسلمين أحدًا من كرام الناس، بل يرى أوْباشًا خليقًا بهم أن يفروا ويتركوا الرسول ﷺ. وقال إن أهل مكة لن يدعوهم يدخلون مكة. ثم جاء بعده العديد من أهل مكة، وتفاوضوا أكثر وأكثر، وكان آخر ما عرضوه على المسلمين أن عليهم على الأقل أن يعودوا أدراجهم هذا العام، فلن يدعوهم يطوفون هذه المرة، لأن أهل مكة سيشعرون بالعار والمهانة إذا سمحوا للمسلمين بدخول مكة والطواف بالكعبة هذا العام، ولكنهم قد يسمحوا لهم بذلك إذا عادوا في العام التالي.

وقد احتجت بعض القبائل المتحالفة مع أهل مكة عليهم، وطلبوا من القادة السماح للمسلمين بالطواف، لأن كل ما أرادوه هو حق الطواف، فلماذا يحرمون حتى من هذا؟ ولكن أهل مكة ظلوا على عنادهم وصلابتهم، وعند ذلك هدّد قادة القبائل بالانفصال عن جيش مكة، ما دام أهل مكة لا يريدون السلام. وخشي أهل مكة أن يُنفّذ قادة القبائل تهديداتهم، فسعوا إلى الوصول إلى تسوية مع المسلمين. وما أن علم الرسول ﷺ بذلك حتى أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي أصبح الخليفة الراشد الثالث في الإسلام، إلى أهل مكة، وكان له أقرباء عديدون فيهم، فجاءوا وأحاطوا به وعرضوا عليه أن يطوف هو بالبيت إن أراد، ولكنهم لن يدعوا الرسول يفعل ذلك حتى العام القادم. ورفض عثمان أن يطوف هو إلا أن يكون في صحبة حبيبه وقائده ﷺ. وطال التفاوض بين عثمان وبينهم، وانتشرت إشاعة مغرضة أنه قُتل، وبلغت الإشاعة آذان الرسول ﷺ. وعند ذلك جمع

رسول الله أصحابه وأخبرهم أن احترام الرسل أمر معمول به في كل الأمم، وأنه سمع بأن أهل مكة قتلوا عثمان، فلو كان هذا صحيحًا فعليهم أن يدخلوا مكة مهما ترتب على ذلك. وهكذا كان لا بد أن تتغير نيّة الرسول ﷺ في دخول مكة بسلام بعد أن تغيرت الظروف. وتابع الرسول ﷺ حديثه فقال لهم إن أولئك الذين عاهدوا الله تعالى إذا لقوا الذين كفروا زحفًا ألا يولوهم الأدبار، عليهم أن يتقدموا ليبايعوه على ألا يفروا. وما أن أنهى الرسول ﷺ حديثه، حتى نهض الألف والخمسمائة صحابي وقفزوا مسرعين إلى يد الرسول يصافحونها ويبايعونه على ألا يفروا، فإما النصر أو الشهادة. وكان لهذه البيْعة أهمية خاصة في تاريخ الإسلام الباكر، وهي تسمى بيْعة الشجرة ، لأن الرسول ﷺ كان يجلس تحت شجرة عندما بايعه المسلمون وكذلك تُسمى أيضًا بيْعة الرضوان، وكل من اشترك في هذه البيْعة ظل فخورًا بها إلى آخر أيام حياته. ولم يحدث أن تردّد واحد من الألف والخمسمائة في المبايعة، ولا تراجع أحد. لقد وعدوا جميعًا أنه إن لم يعد مبعوث الرسول ﷺ، وإن كان قد قتل، فسوف يتقدّمون، فإمّا فتحوا مكة ونالوها قبل الغسق أو قتلوا جميعا دون هدفهم. ولم تكن البيْعة قد انتهت عندما عاد عثمان رضي الله عنه وأبلغ الرسول ﷺ أن أهل مكة لن يتركوا المسلمين يطوفون بالكعبة حتى العام القادم، وأنهم قد عينوا وفدًا لتوقيع عهد مع المسلمين.

ولم يلبث أن جاء إلى الرسول ﷺ بعد ذلك سُهَيْل بن عمرو، على رأس وفد مكة، ووصلوا إلى اتفاق على شروط المعاهدة وتم تسجيلها.

صلح الحديبية

وفيما يلي نص هذا الصلح:

باسْمكَ اللَّهُمَّ. هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْه مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْد الله وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى وَضْعِ الْحَرْب عَشْرَ سنينَ، يَأْمَنُ فيهَا النَّاسُ وَيَكُفُّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى رَسُولَ الله ﷺ منْ أَصْحَابه بغَيْر إذْن وَليِّه رَدَّهُ عَلَيْهمْ وَمَنْ أَتَى قُرَيْشًا ممَّنْ مَعَ رَسُول الله ﷺ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْه. وَإنَّ بَيْنَنَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً وَإنَّهُ لا إسْلالَ وَلا إغْلالَ. وَكَانَ في شَرْطهمْ حينَ كَتَبُوا الْكتَابَ أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ في عَقْد مُحَمَّد وَعَهْده دَخَلَ فيه وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ في عَقْد قُرَيْش وَعَهْدهمْ دَخَلَ فيه. فَتَوَاثَبَتْ خُزَاعَةُ فَقَالُوا نَحْنُ مَعَ عَقْد رَسُول الله ﷺ وَعَهْده وَتَوَاثَبَتْ بَنُو بَكْر فَقَالُوا نَحْنُ في عَقْد قُرَيْش وَعَهْدهمْ. وَأَنَّكَ تَرْجعُ عَنَّا عَامَنَا هَذَا فَلا تَدْخُلْ عَلَيْنَا مَكَّةَ، وَأَنَّهُ إذَا كَانَ عَامُ قَابلٍ خَرَجْنَا عَنْكَ فَتَدْخُلُهَا بأَصْحَابكَ وَأَقَمْتَ فيهمْ ثَلاثًا مَعَكَ سلاحُ الرَّاكب، لا تَدْخُلُهَا بغَيْر السُّيُوف في الْقُرُب. (مسند أحمد)

وحدث أثناء التوقيع أمران هامّان، ففي بداية الأمر وبعد تحديد الشروط، بدأ الرسول ﷺ في إملاء الكتاب، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم. فاعترض سُهيل وقال إنهم يعرفون الله، ولكنهم لا يعرفون ما الرحمن وما الرحيم، وإن هذا اتفاق بين طرفين فيجب إذن احترام عقائد الطرفين. ووافق الرسول ﷺ على الفور وقال لكاتبه: "اكتب باسمك اللهم". واستمر الرسول ﷺ في إملاء شروط الاتفاق. كانت جملة الافتتاح هي: "هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة"،

فاعترض سُهيل ثانية وقال: "لو نعرف أنك رسول الله ما قاتلنـــاك". ووافق الرسول ﷺ على الاعتراض أيضًا، وبدلاً من "محمد رسول الله"، أمر بأن يُكتب: "محمد بن عبد الله". وأحس الصحابة بالاضـــطراب وهم يرون رسول الله يوافق على كل مقترحات وشروط أهل مكـــة المجحفة، وبدأت دماؤهم تغلي في العروق، وكان عمـــر رضي الله عنه أكثـــر المنفعلين جميعًا، فذهب إلى الرسول ﷺ وسأله: "يا رسول الله ألســـنا على الحق"؟ فأجاب ﷺ: "بلى، إنّا على الحق". فقال عمر: "ألم يخبرنا الله أننا سنطوف بالكعبة"؟ فأجاب رسول الله بالإيجاب، فسأل عمر: "فلم نعطي الدنية في ديننا؟ وما هذا الاتفاق"؟

وأجاب الرسول ﷺ موافقًا أن الله تعالى وعدهم بطواف الكعبة في أمن وسلام، ولكنه سبحانه لم يقل إن هذا سوف يتم هذا العام، وأنه قد أوّل الرؤيا بما يفيد أن الطواف ربما يتم هذا العام، ولكنه يمكن أن يخطئ في تأويل الرؤيا.

وسكت عمر رضي الله عنه.

ولكن الصحابة الآخرين قدموا اعتراضات جديدة، وسأل بعضهم لماذا وافق على رد كل شاب يتحوّل للإسلام إلى وليّه في مكة، بينمـــا لم يحصل على نفس الشرط للمسلم الذي يرجع إلى الكافرين؟

فشرح الرسول ﷺ لهم أنه لا خطورة عليهم من ذلك، فكل مـــن يصبح مسلمًا يكون كذلك لأنه يقبل الإسلام عقيدة وشرعة، ولـــيس لأنه سينضم لحزب ويتبنى عاداته وتقاليده، ورجل مثل هذا سيشع منه نور الإسلام ورسالته حيثما حل، وسيعمل كأداة لانتشار هذا الدين.

ولكن رجلاً يطرح عنه ثوب الإسلام، هو شخص لا قيمة له ولا فائدة للإسلام منه، فإذا لم يتمسك بكل ما عليه المسلمون بقوّة فهو ليس منهم، ومن الأفضل أن يذهب عنهم حيث يشاء. ولقد أقنع هذا الرد أولئك الذي تشككوا في حكمة النهج الذي اتبعه الرسول ﷺ. وهو اليوم كفيل بإقناع أولئك الذين يظنون أن عقوبة المرتد هي الموت، فلو كان الأمر في عقوبة الردّة عن الإسلام كذلك، لأصرّ الرسول ﷺ على إعادة المرتد إليه كي يقيم عليه حد الإسلام الذي يدّعونه.

عندما تمت كتابة الاتفاق وتم التوقيع عليه، حدثت حادثة كان من شأنها اختبار نيّات الأطراف الموقعة على الاتفاق، فإن أبا جندل، ابن سُهيل بن عمرو، أي أنه ابن السفير المكّي المفوّض الذي وقع معه العهد، مثُل أمام الرسول ﷺ يرسف في قيوده، جريحًا منهكًا، قد جاء زاحفًا من محبسه هاربًا، وسقط عند أقدام الرسول ﷺ قائلاً:

"يا نبيّ الله إنني مسلم من صميم قلبي، ولقد عانيت العذاب على يد أبي بسبب إيماني. إن أبي معك هنا، ولذلك هربت وتدبّرت أمري حتى جئت إليك". فقال سُهيل: "هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده". فقال الرسول ﷺ: "إنا لم نقض الكتاب بعد". فقال سُهيل: "فوا الله إذن لا أقاضيك على شيء أبدًا". فقال الرسول ﷺ: "فأجزه لي". فقال سُهيل: "ما أنا بمجيزه لك". قال: ''بلى فافعل''. قال: "ما أنا بفاعل". وضرب سُهيل أبا جندل في وجهه، وأخذ بتلابيبه وجرّه ليرده إلى المشركين. وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: "يا معشر

المسلمين، أأرد إلى المشركين ليفتنوني عن ديني"؟ فقال رسول الله: "يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا. إنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم".

بعد توقيع الميثاق، رجع الرسول ﷺ إلى المدينة. وبعد العودة بقليل، جاء شاب مسلم من مكة هو أبو بصير، ولكن الرسول ﷺ ردّه إلى مكة حسب شروط المعاهدة، وفي طريق عودته قاتل حارسيْه فقتل أحدهما وفر الآخر. وذهب أهل مكة إلى الرسول ﷺ واشتكوا إليه طالبين أن يردّه إليهم. فقال الرسول ﷺ إنه سلمه إليهم، ولكنه فرّ منهم، وليس من واجب المسلمين أن يبحثوا عنه ويقبضوا عليه ويعيدوا تسليمه إليهم. وبعد عدة أيام فرّت امرأة مسلمة إلى المدينة، فجاء أقرباؤها وطالبوا بعودتها، فقال لهم الرسول ﷺ إن الميثاق يشمل الرجال لا النساء، ولذلك رفض إعادة المرأة.

رسائل رسول الله ﷺ إلى مختلف الملوك

عندما استقر الرسول ﷺ في المدينة بعد عودته من الحديبية، وضع ﷺ خطة أخرى لنشر رسالته، وهي أن يرسل إلى ملوك العالم. وعندما ذكر ذلك لأصحابه قال له الذين يعرفون عادات ومراسيم القصور الملكية إن هؤلاء الناس لا يقبلون كتابًا إلا مختومًا، وبناء عليه اتخذ الرسول خاتمًا منقوشًا عليه: محمد رسول الله.

واحترامًا للفظ الجلالة، كانت كلمة "الله" في القمة، وتحتها كلمة "رسول" وأخيرًا "محمد". وفي المحرم من عام ٦٢٨ ميلادية، أي العام السابع من الهجرة، أرسل الرسول ﷺ رسله إلى عواصم مختلفة، كل منهم يحمل كتابًا منه يدعو الحكام إلى قبول الإسلام.

ذهب الرسل إلى هرقل، عظيم الروم وإلى ملوك الفُرس والحبشة ومصر (كان ملك مصر حينئذ واليًا لقيصر على مصر)، وذهبوا إلى ملوك آخرين كذلك. وحمل دحْيَة الكلبي الرسالة المرسلة إلى قيصر، وكان الرسول ﷺ قد أمره أن يدفع الكتاب إلى حاكم بُصرَى ليدفعه إلى قيصر. وعندما قابل دحية الحاكم المذكور، تصادف أن كان قيصر بالشام في جولة بالإمبراطورية. فقدّم حاكم بُصرى دحية نفسه فورا إلى هرقل. وعندما دخل دحية إلى بلاط الملك قيل له إن كل من يتم استقباله أمام الجمهور ينبغي عليه أن يسجد لقيصر. فرفض دحية قائلاً إن المسلمين لا ينحنون أمام أيّ إنسان. وهكذا جلس دحية أمام القيصر دون أن يؤدي له طقوس الخضوع المفروضة. وتناول قيصر الرسالة وقرأها بواسطة مترجمه، وسأل إن كانت هناك قافلة عربية، وقال إنه يرغب في سؤال رجل من العرب حول هذا الرسول العربي الذي أرسل إليه دعوة لقبول الإسلام.

وحدث أن أبا سفيان كان في المدينة مع قافلة للتجارة بالشام، فأخذه بعض العاملين في بلاط قيصر مع نفر من أصحابه إلى هرقل. وأمره هرقل أن يقف أمام أصحابه من العرب، وأمرهم أن يصححوا

مقالته إن كذب أو خالف الحقيقة. ثم أخذ هرقل يسأل أبا سـفيان، وجرت المحاورة بينهما كما سجلته صحائف التاريخ على النحو التالي:

هرقل: هل تعرف هذا الشخص الذي يدعي أنه رسول الله والذي قد بعث إلي رسالة؟ وكيف نسبه فيكم؟

فأجاب أبو سفيان: هو فينا ذو نسب، وهو من أقاربي

هرقل: فهل قال هذا القول أحد من العرب قبله قط؟

أبو سفيان: لا

هرقل: فهل تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

أبو سفيان: لا

هرقل: فهل كان من آبائه مِن مَلِكٍ؟

أبو سفيان: لا

هرقل: كيف ترون مقدرته على الحكم؟

أبو سفيان: لم نجد أي غبار على مقدرته على الحكم

هرقل: فأشراف الناس يتّبعونه أم ضعفاؤهم؟

أبو سفيان: بل معظمهم من الضعفاء والمتواضعين والشباب

هرقل: أيزيدون أم ينقصون؟

أبو سفيان: بل يزيدون

هرقل: فهل يرتدّ أحد منهم سخْطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

أبو سفيان: لا

هرقل: فهل يغدر؟

أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو فاعل فيها

هرقل: فهل قاتلتموه؟

أبو سفيان: نعم

هرقل: فكيف كان قتالكم إياه؟

أبو سفيان: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. ففي معركة بدر – التي لم أحضرها أنا – استطاع أن يتغلب علينا. أما في أُحُد – التي كنت أنا قائد جيشنا فيها – فنلنا منه، إذ بقرنا بطونهم وقطعنا آذانهم وأنوفهم.

هرقل: ماذا يأمركم؟

أبو سفيان: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يعبده آباؤكم من الأصنام. ويأمرنا أن نعبد الله وحده، وأن نقول الصدق، ونتجنب السيئات. ويحثنا على الإحسان والوفاء بالوعد وأداء الأمانة.

فلما انتهت هذه المكالمة الممتعة قال هرقل للترجمان قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأْتَسي بقولٍ قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه مِن ملِك فذكرت أن لا قلت: فلو كان من آبائه مِن ملِك قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أنّ ضعفاءهم

اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد سخْطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين. (انظر البخاري، كتاب بدء الوحي)

وأزعج هذا الحديث حاشية الملك، وبدأوا يلومونه لإطرائه إمام طائفة أخرى غيرهم، وارتفعت الأصوات المعترضة واللغط، فأمر هرقل الضباط بإخراج أبي سفيان وأصحابه.

كان نص كتاب الرسول ﷺ كما جاء في التاريخ المدوّن كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون". (البخاري، كتاب بدء الوحي)

كانت الدعوة إلى الإسلام المدوّنة في كتاب الرسول ﷺ إلى قيصر، دعوة إلى الإيمان أن الله واحد وأن محمدًا هو رسوله، وعندما قال الخطاب إن هرقل سينال أجره مرتين لو آمن وأصبح مسلمًا، فإنما

يرجع ذلك إلى حقيقة أن تعليم الإسلام يحتوي على الإيمان بعيسى ومحمد كليهما.

ويُروَى أن بعض الحاشية اقترحوا على الملك تمزيق الخطاب ورميه بعيدًا حالَما قدم الكتاب بين يديه، فقد كان الخطاب إهانة للإمبراطور حسبما قالوا، فلم يوصف الإمبراطور بصفته كإمبراطور، ولكن على أنه مجرد "صاحب الروم" أي عظيم الروم. وردّ الإمبراطور بأنه مهما يكن، فليس من الحكمة تمزيق الكتاب بدون قراءته. وأضاف أيضًا أن مخاطبته باعتباره عظيم الروم ليست خطأ، فإن عظيم الكون كله هو الله، وأيّ إمبراطور فليس إلا مجرد كبير القوم.

وعندما علم الرسول ﷺ بالطريقة التي استقبل بها هرقل كتابه بدا راضيًا وسعيدًا، وقال إن مُلكه سوف يستمر بسبب الاستقبال الذي تلقّى به كتابه، وأن نسله سيستمر طويلاً في حكم الإمبراطورية. وهو ما حدث فعلاً، ففي الحروب التي تلت ذلك، خرج من يد الروم جزء كبير من إمبراطورية الروم تحقيقًا لنبوءة أخرى من نبوءات الرسول ﷺ. وبعد ستمائة سنة من هذا الحادث كانت أسرة هرقل لا تزال باقية تحكم في القسطنطينية، وكان خطاب الرسول ﷺ محفوظًا لا يزال في أرشيف الدولة لوقت طويل. وحدث أن قام سفير أحد الملوك المسلمين وهو الناصر قلاوون، بزيارة إلى البلاط الروماني، وهناك أُروه الخطاب مودعًا في حافظة. وقال له الإمبراطور الرومي الذي أراه الخطاب، إن جدّه الأول قد تلقاه من نبيّهم، وأنه قد تم الاحتفاظ به بكل عناية.